

النوبة تأتي بـ "هاجر" إلى غزة !

حمزة أبو الطرابيش

أمام باب منزله في مدينة المجدل، يجلس زكريا بصحبة "كانون" النار التي أشعلها بعد أداء صلاة الفجر، وبعث تحياته الصباحية لزوجته "مريم" مرفقا إياها بطلب "تقليم بكرج الشاي".

هداً لهب النار وأصبح جمراً.. وضع زكريا إبريق الشاي، ودعا زوجته لمشاركته في احتساء كوبٍ قبل أن يذهب إلى عمله. استجابت مريم لدعوة زوجها، وما أن انتهيا إلا حان موعد عمله.

"بتحبي أجبيلك إشي معى وأنا مروح؟!" يسأل زكريا زوجته المطيعة، فتقوم بخجل وتلبسه معطفه بحكم برودة الجو قائلة بصوت خافت: "نفسي في العسل يا حبيبي.. ابنك جاي ع باله"، في إشارة إلى وحامها.

تسهل زكريا إلى عمله بدعوات زوجته "ترجع بالسلامة"، وراحـت منشغلـة بأعمال بيـتها إلى حين وصل موعد إعداد العشاء ، بعضـ من الزيتون والزعـتر وقليلـ من الزيـت وحبـات البندورـة، وأصـبحـت جاهـزة تـتـنـظـر زـوـجـهـا.

مررتـ ساعـةـ ثمـ أخـرىـ، بدـأتـ خـالـلـهـ حـبـاتـ الـزـيـتوـنـ تـجـفـ وـتـتـجـعـدـ، فـيـ حـينـ تـشـكـلتـ طـبـقـةـ سـمـيـكـةـ مـتـشـقـقـةـ فـوـقـ صـحنـ الـزـيـتـ وـتـنـاثـرـتـ ذـرـاتـ الـزـعـترـ، وـمـرـيمـ جـالـسـةـ تـتـنـظـرـ عـودـةـ زـكـرـيـاـ.

تـنـقـلـبـ مـرـيمـ كـفـيـهاـ وـتـضـرـبـ كـلـتـاـ يـدـيهـاـ بـبـعـضـهـمـاـ، وـتـرـتـسـمـ عـلـىـ وـجـهـهـاـ صـورـةـ تـحـكـيـ قـلـقاـ وـخـوـفاـ عـلـىـ زـوـجـهـاـ الـذـيـ تـأـخـرـ عـلـىـ غـيرـ الـعـادـةـ، وـفـجـأـةـ .. صـوـتـ زـكـرـيـاـ يـظـهـرـ قـانـلاـ: "أـطـلـعـيـ يـاـ مـرـيمـ مـنـ الدـارـ الـيـهـودـ دـخـلـواـ"، وـهـنـاـ تـبـدـأـ رـحـلـةـ الـأـلـفـ مـيـلـ.

عـلـىـ عـجـلـةـ.. تـخـرـجـ مـرـيمـ مـسـرـعـةـ مـاسـكـةـ يـدـ زـوـجـهـاـ، وـتـحـمـلـ إـبـرـيقـ مـلـأـتـهـ بـالـمـاءـ، تـارـكـينـ مـتـاعـهـمـ وـكـلـ مـاـ يـمـتـلـكـونـهـ، حـيـثـ أـنـ الرـحـلـةـ لـنـ تـجـاـزـ السـاعـاتـ ، وـفـقـ تـقـدـيرـاتـ زـكـرـيـاـ الـأـولـيـ.

في رحلة الهروب يتـسـيـدـ الخـوفـ المـوقـفـ، وـالـسـمـاءـ تـكـسـيـ بالـأـحـمـرـ بـفـعـلـ القـنـابـ الـتـيـ تـنـسـاقـتـ عـلـىـ منـازـلـ سـكـانـ الـبـلـدـةـ مـنـ قـبـلـ الطـائـرـاتـ الـحـرـبـيـةـ (الـإـسـرـائـيلـيـةـ)، وـيـدـورـ زـكـرـيـاـ حـولـ نـفـسـهـ لـاـ يـعـرـفـ مـاـ يـفـعـلـ.

سلـكـ زـكـرـيـاـ كـمـاـ غـيرـهـ مـنـ سـكـانـ الـبـلـدـةــ طـرـيقـ الـبـحـرـ الـمـلـيـءـ بـالـرـياـحـ الـتـيـ "نـفـخـتـ" مـعـدـةـ زـكـرـيـاـ وـزـوـجـهـهـ وـكـذـلـكـ جـنـينـهـاـ، فـخـلـعـ مـعـطـفـهـ وـوـضـعـهـ عـلـىـ زـوـجـهـهـ؛ لـتـمـلـأـ مـنـ يـسـكـنـ أحـشـاءـهـاـ بـالـدـفـ.

يسـيرـ الزـوـجـانـ وـتـمـرـ السـاعـاتـ وـتـسـتـمـرـ مـرـيمـ فـيـ الشـرـبـ مـنـ إـبـرـيقـ المـاءـ الـذـيـ شـارـفـ عـلـىـ الـاـنـتـهـاءـ، مـحاـولـةـ أـنـ تـرـوـيـ رـمـقـهاـ وـصـغـيرـهـاـ، وـتـمـشـيـ إـلـىـ يـسـارـ زـكـرـيـاـ وـتـارـةـ إـلـىـ يـمـينـهـ، وـهـوـ لـاـ يـكـادـ يـفـارـقـهـمـ خـوفـ عـلـيـهـمـ.

مع اقتراب بـزوـغـ الـفـجـرـ وـصـلـوـاـ إـلـىـ مـكـانـ عـلـىـ شـاطـئـ الـبـحـرـ، تـجـمـعـ فـيـ بـعـضـ مـنـ ذـوـبـهـمـ الـذـينـ سـبـقـوـهـمـ بـالـخـروـجـ مـنـ بـيـتوـهـمـ، وـتـوـحـدـوـاـ عـلـىـ عـقـدـ الـعـزـمـ نـحـوـ الـمـسـيـرـ نـحـوـ الـجـنـوبـ، خـاصـةـ بـعـدـ حـرـقـ مـنـازـلـهـمـ.

يدـخـلـ الـيـوـمـ الثـانـيـ وـالـزـوـجـةـ تـسـيرـ بـصـحـبـةـ زـوـجـهـاـ، وـالـشـمـسـ تـصـدـعـ رـأـسـيـهـمـ، وـالتـعبـ أـنـهـ جـسـديـهـمـ، وـمـاـ لـمـ يـكـنـ بـالـحـسـبـانـ أـنـ يـنـفـدـ المـاءـ، لـكـ إـبـرـيقـ فـرـغـ بـالـفـعـلـ فـيـ السـاعـاتـ الـأـولـىـ مـنـ الرـحـلـةـ الـطـوـلـيـةـ.

فـجـأـةـ.. تـسـقـطـ مـرـيمـ مـغـشـيـاـ عـلـيـهـاـ، مـسـتـنـجـدـةـ زـوـجـهـاـ بـصـوـتـ يـغـلـبـ عـلـيـهـ التـعبـ وـالـأـرـهـاـقـ "مـيـةـ مـيـةـ الـوـلـدـ الـلـيـ فـيـ بـطـنـيـ يـاـ زـكـرـيـاـ".

يـقـفـ الـزـوـجـ مـكـتـوـفـ الـيـدـيـنـ، عـاجـزاـ عـنـ سـقـيـاـ زـوـجـهـ وـجـنـينـهـ.

كـانـتـ مـرـيمـ تـسـيرـ بـبـطـءـ؛ لـأـنـهـ حـاـمـلـ، حـيـثـ أـصـبـحـتـ الـمـسـافـةـ بـيـنـهـاـ وـمـنـ يـرـافـقـهـاـ مـنـ ذـوـبـهـمـ بـعـيـدةـ جـداـ، الـأـمـرـ الـذـيـ صـعـبـ الـاستـعـانـةـ بـأـحـدـهـمـ فـيـ تـوـفـيرـ قـطـرـاتـ مـنـ الـمـاءـ، لـإـنـقـاذـ حـيـاتـهـاـ.

اضطر زكريا إلى حمل زوجته بين ذراعيه عليه ير ويها بدفء حبه في ظل عجزه التام عن توفير الماء، في وقت كانت تذرف عيناه دمعاً سقطت على وجه مريم، كان كفلاً بإشباعها.

يستمر المسير لساعات فاقت تقديرات زكريا، ولا تزال مريم بين ذراعيه فاقدة الوعي تماماً بفعل العطش، إلا أن شاباً يمتطي حماره صادف طريقهما، وقدم الماء بعد نخوته وشهامته التي روت عائلة زكريا.

دبّت الحياة مجدداً في جسد الرجل وزوجته، ما دفعهم لاستكمال المسير باتجاه جنوب فلسطين، إلى أن انتهى بهم المطاف في مدينة دير البلح وسط قطاع غزة، والتقوا بذويهم هناك.

مبدئياً.. صنع زكريا بيئاً من سعف النخيل على أطراف دير البلح؛ ليستر زوجته وطفله المنتظر، وبعد أيام قليلة رُزق بمولودة أطلق عليه اسم "هاجر"، ليكون لاسمها نصيب من قصة المعاناة التي عاشها والديها.

وانقلت العائلة بعد مرور سنة، للعيش في مخيم جباليا لللاجئين، الذي أقامته وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، ولا تزال تسكن الحاجة مريم هناك حتى اليوم، منتظرًّا العودة إلى المجدل برقة ابنتها.

وتؤكد الحاجة التسعينية أنها لم تتجزع كأس الهجرة وحدها، بل إن معظم الفلسطينيين المهاجرين من ديارهم لا زلوا يكتونون بنار ذكرى النكبة.

تمسک بـ"عگازها" وتشير إلى صورة زوجها زكريا الذي وافته المنية قبل أعواام، ولا تزال تحفظ بصورته قائلة: "الله يرحمه كان من خيرة شباب فلسطين، ومعه للرجلة الحقيقة".

المصدر: الرسالة نت